# الدرس الثالث

## دعوة الرسل

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۖ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ (إبراهيم: ٩-١٨).

## الالتفات من أسلوب القرآن البلاغي :

هل هذه الآيات تكملة وتتمَّة لخطاب موسى لقومه ، أم هي بيانٌ استئنافي ، أو ما يُسمِّيه علماء البلاغة : التفاتًا لموضوع جديد؟!

بعض المفسرين مالوا إلى أنه من تتمَّة كلام موسى . والبعض قال : لا ، هو كلام جديد .

وأنا مع هذا القول الثاني ؛ فقد انتهى كلام موسى ، وبدأ القرآنُ في خطاب جديد للمشركين ، بدليل أنَّ الخطاب لقوم يكفرون بالله ، ويكفرون بالرسل . وقومُ موسى ما كفروا بالله ، ولا برسولهم ، هم يقولون : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ ، مما يدلُّ على أنهم كَفَرة ومُكذِّبون .

## حثُّ القرآن على الاعتبار بالتاريخ والسَّيْر في الأرض :

فهو ابتداء كلام من جديد ، يوظَّف فيه التاريخ لخدمة الرسالة ، والتاريخ مَخْزِنُ العبر ، وذاكرة الأمم .

والقرآن يحثُّ دائمًا على الاعتبار بالتاريخ ، تاريخ الماضين ، هو مدرسةٌ نتعلَّم منها ، ونستفيد منها الدروس دائمًا ، ولذلك يقول الله سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (النمل:٦٩) .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٧) .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج:٤٦) .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (غافر:٨٢) .

فهو يطلبُ منا أن نسيرَ في الأرض ، نرحل مُشَرِّقين ومُغَرِّبين ، وننظر في آثار الأمم ونستفيد منها .

## مصيرُ الأمم المُكذِّبة :

الأمم التي كذَّبت رُسُل الله ، وعَصَتْ رُسُلَ الله ، واتَّبعت ما كان عليه الآباء ، ورفضت التوحيد . ماذا كان مصيرها ؟

التاريخ يُحدِّثنا أنَّ مصيرها كان هو الهلاك ، فهو هنا يقول : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ ، النبأ : هو الخبر ذو الشأن . وهذه أخبار لها شأن ، لأنها تتعلَّق بأُمم صَدُّوا عن رُسل الله ، ووقفوا ضدَّ الرسالة .

الله سبحانه وتعالى من لطفه وفَضْله ورحمته وحكمته لم يَدع الناس هَمَلاً ، ولم يتركهم سُدًى ، بل أرسل إليهم رُسُلاً مُبشِّرين ومُنْذرين ، ومُنبِّهين ومُعلِّمين : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (النساء:١٦٥) .

## حاجة العقل البشري إلى هداية الوحي :

كان الناس في حاجة إلى مَنْ يأخذ بأيديهم ليعرِّفَهم ما يُحبُّ الله وما يكرهه ، وما يرضاهُ وما يَسخْطه ، لم يكتفِ بالعقل وحده ، لأنَّ العقل وحده قد يضل الطريق ، قد لا يهتدي إلى سواء السبيل .

رأينا كبار الفلاسفة يقعون في أخطاء كبيرة ، حتى لا يعرفون حقَّ الله عزَّ وجل ومقام الله جلَّ جلاله .

أكبر فلاسفة اليونان (أرِسْطوطاليس) يقول : (إنَّ الله لا يعلم في الكون شيئًا ، ولا يَحْلُّ فيه ، ولا يعْقد ، ولا يُدَبِّر فيه أمرًا ، الله لا يعلم إلا ذاتَه ، إنما هذا اسمه عالم الكون ، والفساد لا يعلم فيه شيئًا) .

حتى إنَّ مؤرخ الفلسفة ـ مؤرِّخ أمريكي مشهور ـ أرَّخ للتاريخ في كتاب شهير اسمه : (قصة الحضارة)[1]، وله كتاب آخر اسمه : (مباهج الفلسفة) .

يقول في (مباهج الفلسفة) : (يا لإله أرِسْطو من إلهٍ مسكين ، إنه لا يعمل في الكون شيئًا ، ولا يُدبِّر فيه أمرًا ، إنه مثل ملك الإنجليز يملك ولا يحكُم) . فهذا إله أرِسْطو لا يعرف شيئًا في هذا الكون إطلاقًا . وهناك فيلسوف ثانٍ اسمه (أفلوطين) ـ إذا كان إله أرسطو لا يعرف إلا نفسه ، فإله أفلوطين لا يعرف نفسه .

هؤلاء فلاسفة كبار ، ولكنهم انحدروا إلى هذا المستوى من الفهم لمقام الله عزَّ وجل ! !

ومن هؤلاء الفلاسفة مَنْ يقول بفلسفة اللذَّة ، ومَنْ يقول بفلسفة المنفعة ، ومَنْ يقول بفلسفة القوة ، ومَنْ يقول : إنَّ الإله مات والإنسان عليه أن يفعل ما يشاء ـ (نيتشة) وغيره من الفلاسفة ـ واختلفَ بعضهم مع بعض وناقض بعضهم بعضًا ، هذا يُثبت ، وهذا ينفي ، وهذا يُحق وهذا يُبطل ، حتى قال أحد أساتذة الفلاسفة : (إنَّ الفلسفة لا رأي لها ؛ لأنها تعطي الشيء ونقيضَه) هذا يقول شيئًا ، والثاني يقول بخلافه تمامًا .

ولذلك كان الناس في حاجة إلى شيء يعين العقل ، لأنَّ العقل وحده لا يستطيع أن يهدي الإنسان سواء السبيل .

رأينا العرب في جاهليتهم هداهم العقل إلى أن يئدوا البنات : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ (التكوير:٨،٩) ، وقتلوا الأولاد من إملاق ، أو خشيةَ إملاق ـ بنين وبنات ـ إما من فقر واقع ، أو خوف فقر متوقَّع !

---

(١) هو كتاب موسوعيّ تاريخي ، من تأليف الفيلسوف والمؤرِّخ الأمريكي (وول ديورانت) ، ويتكوّن من أحد عشر جزءًا ، يتحدث فيه عن قصة جميع الحضارات البشرية ، منذ بدايتها وحتى القرن التاسع عشر ، وقد ترجم الكتاب إلى العربية وأصدرته المنظمة العربية للعلوم .

رأيناهم يفعلون هذا ، ورأينا الأمم تفعل أشياء غريبة جدًّا ، لهذا كان الناس في حاجة إلى رسالة ، إلى وحيٍ من الله عزَّ وجلَّ ، الوحيُ هذا يُرشد العقل إذا انحرف ، ويهديه إذا ضلَّ ، ويُصوِّبه إذا أخطأ .

## خطأ الحواسّ وتصحيح العقل لها :

هناك هدايات عدَّة : هداية الحواس ، الله سبحانه أعطانا الحواس الخمس : البصر ، والسمع ، والشمّ ، واللمس ، والذوق . هذه الحواسّ الخمس قد تُخطئ ، ما الذي يُصَحِّح خطأها ؟ العقل ، يعني أنت قد تنظر إلى النَّجم في السماء فيتهيَّأ ال[illegible] كالكرة الص[illegible]ة .

والـــنَّجْمُ تستصـــغر الأبصـــارُ رؤيتَـــهُ والذَّنْبُ للطَّرف لا للنَّجْم في الصِّغرِ[1]

فهذه النجمة التي في عينيك صغيرة ، هي أكبر من الأرض بملايين المرات ، عشرات الملايين ، مئات الملايين ، علم الفلك والرياضيات وحساب الرياضيات أوصلهم إلى هذا .

يمكن أن ينظر أحدنا إلى الظلِّ فيراه ساكنًا ـ حسب البصر ـ الظلُّ ساكن ، بعد دقائق الظلُّ تحرَّك ، إذن لم يكن ساكنًا ، هو يتحرَّك ببطء ، ولكن البصر لا يراه .

يمكن للبصر أن يرى في الصحراء السَّراب يحسبه ماءً ، حتى إذا أتيت الموضع الذي رأيت فيه ماء لم تجد عنده ماء ولا شيئًا ، ﴿ **كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا** ﴾ (النور:٣٩) . فهذا البصر هو أقوى الحواس يمكن أن يخدعك ، ما الذي يُصحِّح خطأ الحواس؟ العقل .

فإذا أخطأ العقل ما الذي يصحِّحه ؟ الوحي ، فالوحُي نور على نور ، زيادة على نور الفطرة ، ونور العقل ، كان نور الله بالوحي .

---

(١) من شعر : أبي العلاء المعري .

## عجائب الطاقة الإنسانيَّة :

وليس بعجيبٍ أن يُوحيَ الله إلى البشر ، ما العجيب في هذا ؟! ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ (يونس: ٢)، ما العَجَب في هذا ؟!

العَجَب أن يكون الإنسان عنده قدرة على أن يَتلقَّى وحيَ الله ! الإنسان أعطاه الله طاقات عجيبة ، بعض الناس عنده طاقة جسميَّة يحمل مائتين وستين كيلوجرامًا ، ناس عندهم قدرات أخرى ، كالذي يجرُّ سيارة بأسنانه . طاقات عجيبة في الإنسان ، ولعلكم رأيتم بعض هذه الأعاجيب .

الأستاذ أحمد حسين أَلَّف كتابًا سمَّاه : (الطاقة الإنسانية)[1] ، وذكر من عجائب الطاقة الإنسانيَّة الشيءَ الكثير ، فما الذي يُدهش الإنسان أن تكون عنده طاقة رُوحية ، يستطيع أن يتلقَّى بها كلامَ الله ، ووحيَ الله عزَّ وجلَّ ، أو من ناحية الربوبية ما الذي يُعجز الله أن يخاطب الإنسان بكلام يُسمعه إيَّاه؟ ليس هذا بعجيب .

## نعمة إرسال الرسل وموقف أقوامهم منهم :

فإرسال الرسل نعمةٌ من الله عزَّ وجلَّ ورحمة منه ، وهي تدلُّ على تمام حكمة الحكيم ، الذي يُريد أن يوصلَ الهداية الكاملة إلى الناس ، فلم يكتفِ بعقولهم وحدها ، ولا بضمائرهم وحدها ، ولكنْ أرسل لهم الوحي : النبوة ، الرسالة .

هؤلاء الرسل جاءوا إلى أقوامهم ، ولكن للأسف نرى كثيرًا من الأقوام كذَّبوا الرسل ، ومن هنا كان هذا الخطاب : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ، أمَا جاءكم أخبار هؤلاء الأقوام ، وكيف وقفوا ضدَّ الرسل الذين أرسلهم الله لهم ، وكذَّبوهم؟!

---

(١) كتاب يبحث في إثبات الوجود الغيبي وما وراء المادة ، ويعيب على الماديين غرورهم ، ويضرب الأمثلة للهفوات والأخطاء التي وقع فيها علماء المادة .

قوم نوح : ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (نوح:٢١) .

وعاد قوم هود : ﴿ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (هود:٥٩) .

وقوم فرعون : ﴿ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ (هود:٩٧) .

كَذَّب هؤلاء الرسل ، ألم يأتكم نبؤهم؟ نبؤهم فاضَت به الأخبار ، وعرَفه القاصي والداني ، خصوصًا هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه .

## الاستفادة من تاريخ الرسل وأممهم :

قومُ نوح هم الذين أغرقهم الطُّوفان ، وقصةُ الطوفان معروفة عند البشر جميعًا ، ولذلك يعدُّ سيدنا نوح أبا البشرية الثاني ، لأن آدم يعدُّ أبا البشرية الأول ، ونوحًا أبو البشرية الثاني : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ (الصافات:٧٧) .

فقوم نوح جاء الطُّوفان فأغرقهم ، وكذلك عاد وثمود ، وقصَّتهم على وجه الخصوص معروفة عند العرب ؛ لأنَّ كُلاًّ من عاد وثمود هم قوم من العرب ، يسمَّون العرب البائدة ، الذين بادوا ، ودَرَستْ آثارهم ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ (العنكبوت:٣٨) ، تمرُّون على مساكنهم .

عاد كانوا في الأحقاف : ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ (الأحقاف:٢١) .

في جنوب الجزيرة هناك إقليم اسمه إقليم الأحقاف حتى الآن ، وثمود في مدائن صالح ، مَنْ يذهب إلى تبوك يمرُّ بمدائن صالح .

والنبيُّ عليه الصلاة والسلام هو والصحابة لمَّا ذهبوا في غزوة تبوك مرُّوا بحِجْر ثمود ، وقال النبيُّ ﷺ : « لا تدخلوا على هؤلاء المُعذَّبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، لا يصيبكم ما أصابهم »[1] .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الصلاة (٤٣٣) ، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٠) ، كما رواه أحمد (٤٥٦١) ، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير (١١٢٧٤) ، عن ابن عمر .

﴿ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ (العنكبوت:٣٨) ، ولذلك قال الله تعالى في أواخر هذه السورة : ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (إبراهيم:٤٥) ، فهو يُذكِّرهم بهذا التاريخ ، لا بد أن يستفيدوا من تاريخ الأمم وتاريخ الرسل .

## القوم المُهْلَكون :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾

قوم نوح أهلكهم الطُّوفان ، وثمود قوم صالح أهلكوا بالصَّيْحة ، وعاد قوم هود أهلكتهم الريح : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ (الحاقة:٥-٧) .

## والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله :

هناك قوم إبراهيم ، وهناك قوم لوط ، المُؤْتفكات أو المُؤْتفكة ، الذين جَعَلَ الله قريتهم عاليَها سافلَها ، وأمطر عليهم حجارةً من سجيل منضود .

وهناك قومُ مَدْيَن ، وهناك قومُ فرعون ، كلُّ هؤلاء جاءوا من بعد عاد وثمود : ﴿ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ، كناية عن أقوام كثيرين ، وليس من شأن القرآن أن يُعنى بتفصيل هؤلاء ، لأنَّ المهم هو العبرة .

فالذين كذَّبوا رُسلَهم وعَصَوْا ربَّهم ماذا كان مصيرهم؟ كان مصيرهم العذاب والهلاك ، هَلَكوا لم تُغْن عنهم حُصونُهم من الله شيئًا ، لم تُغْن عنهم قصورهم ، لم تُغْنِ عنهم قوتُهم : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (فصلت:١٥) .

## الرسل سفراء عن الله عزَّ وجلَّ :

﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾

الرسلُ جاءتهم بالبيِّنات ، وهي الآيات البيِّنات التي تدلُّ على صدقهم ، وصحَّة نبوَّتهم ، وأنهم لا يُمثِّلون أنفسَهم ، وإنما يُمثِّلون الإرادة الإلهيَّة .

الرسولُ هذا بمثابة سفير يُمثِّل السماء في الأرض ، كما نرى في عصرنا ، السُّفراء يمثِّلون دولَهم ، وأي سفير يأتي إلى دولة ـ لكي تعرف الدولة أنَّ هذا جاء من البلد الفلاني ومن الدولة الفلانية ـ لا بد أن يقدِّم أوراق اعتماده التي تدلُّ على أنه يُمثِّل هذه الدولة ، والرسلُ حينما يأتون يقولون : نحن جئنا من قِبَلِ الله سبحانه ، رسل مبعوثون من عند الله . نقول : ما الدليل على هذا ؟ ﴿ **فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ** ﴾ (الشعراء:١٥٤) ، فلا بد أن يأتي بالآيات البيِّنات التي تدلُّ على أنه مبعوث العناية الإلهيَّة ، وأنه لا يتكلَّم من عند نفسه ، وإنما يتكلَّم بوحيٍ من ربِّه .

## مجيء الرسل بالآيات الواضحات :

فكلُّ رسول معه من الآيات البيِّنات ما يدلُّ على صدقه ، وهي قد تكون معجزة ـ آية خارقة ـ يُحيي الموتى ، يُبرئُ الأكمه والأبرص ، أو العَصَا تنقلب حية ، وقد تكون شيئًا آخر . . . إلخ .

سيرته نفسها تدلُّ على صدقه ، القرآن لم يقل : أرسلنا رسلنا بالمعجزات ، ولكن قال : بالبيِّنات أو بالآيات ، ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا** ﴾ (هود:٩٦) .

الآية والبيِّنة : العلامة الدالَّة على صدق الرسول ، وقد تكون آيةً حسيَّة كونيَّة خارقة ، وقد تكون آيةً أخلاقية . قد تكون دلالة من الدلالات التي تدلُّ على أنَّ هذا الرجل صادق وليس كاذبًا ، ليس مُزيِّفًا في دعواه .

وقد تكون البينات : العقائد والمناهج والأحكام . جاءوا بأحكام بيِّنة ، كما قال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ (التوبة:٣٣) ، هذه من البيِّنات ، ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ (الحديد:٢٥) ، فالبيِّنات إما الآيات الدالة على الصدق ، أو المناهج الإلهيَّة التي تهدي البشر للتي هي أقوم .

## موقف الأقوام المُكذِّبة من دعوة الرسل :

## ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾

رَدُّوا أيديَهُم في أفواههم . هذه الضمائر لِمَن ؟ هل هم الذين أُرسل إليهم الرسل ، هؤلاء الأقوام ، ردُّوا أيدَيُهم في أفواههم ، يعني وَضَعُوا أيديَهُم في أفواههم ؛ لأنهم كانوا يضحكون استهزاءً بالرسل ، فخشيةَ أن تبدو دواخل أفواههم يضع يده حتى يداري على فمه . هذا احتمال .

أم الذين ردُّوا أيديهم في أفواههم ، أو وضعوا أيديهم ، هؤلاء الكفَّار ، في أفواه الرسل ، يعني يسكتوهم : اسكُتوا اسكُتوا . كما قال الله تعالى عن قوم سيدنا نوح : ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ (نوح:٧) ، أي : لا نريد أن نراك ، ولا أن نسمع صوتك ، ﴿ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ ﴾ لماذا ؟ حتى لا يَرَوه ، ووضعوا أيديهم في آذانهم حتى لا يسمعوه ، فكان هؤلاء يردُّون أيديهم في أفواههم : يعني يُسكتونهم ، يضعون أيديهم في أفواههم ؛ لإسكاتهم ، مبالغةً في الإعراض عن دعوة أنبياء الله تعالى ورسله .

هل هذا لا بد أن يحدث بالفعل ، أم هو كناية عن السكوت والإعراض ؟

القرآنُ يستعمل الكنايات ، كأنْ يقول : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان:٢٧) ، ليس من الضروري أن يعض ،

إنما هذا كناية عن الندم ، ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ (الكهف:٤٢) ، هذه كنايةٌ عن الحَسْرة ، فقد تكون هذه كنايات .

## الجمود العقليّ للوثنيين :

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾

انظر إلى هذا الصُّدود ، إلى هذا الإعراض والاستكبار والجمود العقلي ، الذي تصيب به الوثنيات الإنسانَ ، ويصيب به الشِّركُ عقلَ الإنسان .

الإنسان المشرك يُصاب بلَوْثة في عقله ، فلا يُميِّز بين الحقِّ والباطل ، ولا يُميِّز بين النُّور والظلام ، ولا يفرِّق بين الهُدى والضلال ، يقولون : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ ، جاءوهم بالهدى ، جاءوهم بالبيِّنات ، جاءوهم بالحقِّ الواضح الذي قامت الدلائل على صحَّته ، فقالوا : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ .

هل هم يؤمنون بأنهم أُرسلوا ، يقولون : ﴿ كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ ﴾ ؟ هم لا يؤمنون بأنهم أُرسلوا ، فكيف يقولون : بما أرسلتم به؟! هذا من باب السُّخرية ، من باب الاستهزاء ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الحجر:٦) .

كيف يقولون : إنَّك لمَجْنون . ويقولون : نُزِّل عليه الذكر؟! ـ يعني هذا من باب الاستهزاء : الذي زعم أنه نُزِّل عليه الذكر ، فهم يقولون : ﴿ أُرْسِلْتُم ﴾ أي : زعمتم أنكم أرسلتم .

﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

الشك الموقع في الرِّيبة والحيرة ، مَّما تدعوننا إليه من العقائد ، ومن الشرائع ، ومن الأخلاق ، ومن السُّلوكيَّات ، نحن في شكٍّ من هذا كلِّه ، وشكٍّ شديد مُوقِع في الريبة .

## دلائل الفطرة على وحدانية الله وقدرته :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

فيمَ الشك؟ في الله ، أتشكُّون في الله ، أفي الله شك؟! الفطرة تنادي بأن هناك ربًّا خَلَقَ الإنسان وخلق الكون وَوَهَبَ الحياة : ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؟! هذه المخلوقات من فوقكم ومن تحتكم ، من الذي خلقها؟ هو الله الذي فطرها ، ابتدأها ، أحدثها ، هو خالق السماوات والأرض ، هذه من أدلِّ الدلائل على وجود الله ، وعلى وحدانيَّة الله ، وعلى قدرة الله ، وعلى حكمة الله : ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

وفي هذا يقول أبو العتاهية :

فيا عَجَبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يَجْحَده الجاحدُ
ولله في كلِّ تحريكةٍ ... وفي كلِّ تسكينةٍ شَاهِدُ
وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنَّه الواحدُ

﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، فاطر السماوات والأرض هو الله كيف تشكُّون فيه؟ وقد أُرسلنا إليكم لمنفعتكم ولمصلحتكم ، الله لا يناله نفعٌ إذا آمنتم ، ولا يناله ضُرٌّ إذا كفرتم ، كما قال موسى عليه السلام : ﴿ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (إبراهيم:٨) .

## حاجة الإنسان إلى المغفرة :

﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾

هذه الرسائل ـ الرسالات والدعوات ـ من الله جاءت لمصلحتكم ، ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، الله بعثنا لندعوكم باسمه .

﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم ﴾ ، معنى هذا : أنَّ الإنسان بطبيعته خطَّاء ، ولا بد أن يقع في المعاصي ، ولهذا كان كلُّ إنسان في حاجة إلى المغفرة ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٣) .

﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (الحديد:٢١) ، قبل الجنة : المغفرة .

الإنسان في حاجة إلى المغفرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (الصف:١٠-١٢) ، فالمغفرة قبل كلِّ شيء .

﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم ﴾ ، أي : يدعوكم إلى التَّوحيد ، والإيمان بالنبوة ، والإيمان بالآخرة ، وإلى عبادته سبحانه ، يدعوكم إلى هذا ليغفر لكم ، يدعوكم إلى أسباب المغفرة من الإيمان والعمل الصالح .

## سرُّ التعبير بـ (مِنْ) في قوله سبحانه : ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ ، أحيانًا يقول : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ، مثل آية الصف ، وأحيانًا يقول : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ (الأحقاف:٣١) ، ليشير إلى أنَّ هناك من الذنوب ما لا يُغْفَر مثل الشرك : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٤٨) ، ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء:١١٦) .

التأخير إلى أجل مُسَمَّى :

﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، ليُعطيكم فرصة ، ليُمهلكم مدَّة من الزمن ، فلا يعاجلكم بالعذاب ، فالله سبحانه وتعالى يُمهل ولكنَّه لا يُهمل ، يُمْلي للناس ، يعطيهم فرصةً بعد فرصة ، ليراجعوا أنفسهم ويتداركوا أمرهم ، لا يعاجلهم بالعذاب ، يؤخِّر العذاب إما في الدنيا ، وإما يُؤَخَّر إلى الآخرة : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (إبراهيم: ٤٢) .

كما قال سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (نوح: ٣، ٤) .

يؤخِّركم لوقت مُحَدَّد عنده ، وهو يعرف إذا جاء هذا الوقت نزل عذابه ، ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (نوح: ٤) .

﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ، هكذا قالت لهم رسلهم ، فبماذا ردَّ عليهم هؤلاء الأقوام؟

﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ (إبراهيم: ١٠)

حواجز مُصْطَنعة :

ذكروا ثلاثة حواجز :

١- **الحاجز الأول قولهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾** . وهذه قضيَّة ـ للأسف ـ مُتكرِّرة ، البشر في كلِّ أحقاب التاريخ ، ومع مواكب النبوَّة يذكرون هذه

الدعوى ، يدَّعون على الرسل أنهم بشرٌ مثلهم ! ! وهذه هي الحكمة الإلهيَّة ، لا بد أن يكون الرسل بشرًا مثلنا .

إذا بعث الله لنا مَلَكًا كيف نقتدي بالملَك؟! هو لا يأكل ولا يشرب ، ولا يتزوَّج ولا ينام ، ولا يخطئ ولا يعصي ، كيف يكون لنا أسوة؟!

الحكمة تقتضي أن يكون الرسول من جنس المُرْسَل إليهم : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ (التوبة:١٢٨)، أي : من جنسكم ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ (الأنعام:٨) . الملك لا ينزل إلا بالعذاب : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام:٩) ، إذا نزل ملك كان لازمًا أن يكون في صُورة رجل ؛ حتى يستطيع أن يعيشَ مع الناس ، وأن يكلِّمهم ويسايرهم ويعايشهم ، وإذا قلبناه رجلاً انتهت العملية وأصبح بشرًا .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ (الإسراء:٩٥) ، أي : واحد منهم ، أما أنتم لستم ملائكة ، فكيف نُنزِّل عليكم ملائكة ، فمن العَجَب أن يقول الناس : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون:٢٤) .

الحكمة تقتضي أن يُنزل الله بشرًا رسولاً ، كان المفروض من البشر أن يعتزُّوا ويفتخروا بأن الله أرسل منهم رسلاً يخاطبونهم ، وينزل عليهم وحيه ، هذا موضع عزَّة للبشر ، وكرامة لهم ، ولكن للأسف الجحود والشرك والكفر يَطْمس على العقول ، فلا تعي ولا تُميِّز .

فهذا أول حاجز حَجَزهم عن اتِّباع الرسل : أنهم بشر مثلهم .

٢- **الحاجز الثاني : ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾** ، لم يفكِّروا يومًا ، ما الذي يعبده آباؤهم؟! هل هو شيءٌ يستحق العبادة ؟! هل هذه

الأصنام التي لا تُبْصِر ولا تسمع ، ولا تضرُّ ولا تنفع ، ولا تُعطي ولا تمنع ، ولا تهدي سبيلاً ولا تتكلَّم ، هل هذه تصلح آلهة ؟!

الإنسان يصنع الصنم ـ ينحته بيده ـ ثمَّ يعبده ، كما قال سيدنا إبراهيم : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ (الصافات:٩٥) ، صنم تنحتونه وتُصوِّرونه ، وتعملون له أنفًا ووجهًا ، ثم تسجدون له وتعبدونه ، وتطلبون منه الرزق ، وتطلبون منه الشفاء ، أهذا هو العقل ؟! الشرك أضلَّ الناس ، فلم يفكِّروا في هذه المعبودات .

**التقليد الأعمى :**

﴿ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ ، هكذا قال قوم هود لهود : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ (الأعراف:٧٠) .

وهكذا قال قوم صالح لصالح : ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ (هود:٦٢) .

وكذلك قال قوم شُعيب لشعيب : ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ﴾ (هود:٨٧) .

وكذلك قال قوم فرعون لموسى وهارون : ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس:٧٨) .

وهكذا ردَّد كلُّ الأقوام المكذِّبين للرسل هذه المقولة : ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ .

﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف:٢٣) ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٧٠) ، ﴿ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ (الزخرف:٢٤) ، هكذا قال أقوام الأنبياء ، الحُجَّة العقليَّة ليس لهم فيها نصيب ، لا يطالبون باستخدام العقل ، العقل مُعطَّل عند هؤلاء .

٣- **الحاجز الثالث :** ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ ، إنهم يريدون آيةً كونيَّةً خارقة ، وهكذا كلُّ الأنبياء ، طالبهم أقوامهم بآيات خارقة ، حتى سيِّدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام:٣٧) ، ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ (الإسراء:٥٩) ، طلب الأوَّلون آيات مثل : قوم صالح ، طلبوا منه آية وجاءت الناقة ، وقال : ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الشعراء:١٥٥) .

وجاءت ناقة خلقها الله لهم فكفروا وعقروها ، ذبحوها ، الآيات لم تنفعهم ، ولذلك هي حُجَّة يتذرَّعون بها ، ويتكئون عليها لتبرير جحودهم وعنادهم .

## جواب الرسل على مطالب أقوامهم المُكذِّبين :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾

الأنبياء ليس بيدهم السلطان ، وليس بيدهم القدرة بحيث يستجيبون لما يطلبه الأقوام من آيات حسيَّة خارقة كونيَّة : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (غافر:٧٨)، ولذلك ردَّت عليهم الرسل : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾، وهنا تأكيد ، أضاف كلمة ﴿ لَهُمْ ﴾ ، مثل آية الكهف ، حين قال سيدنا الخَضِر لسيدنا موسى : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (الكهف:٧٢) ، وبعد ما وقع في الخطأ الثاني قال : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (الكهف:٧٥) .

وهنا قال : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ، نعم ، ما نحن إلا بشرٌ مثلكم ، نحن لا ندَّعي أننا ملائكة ولا خلق غير هذا الخَلْق الآدمي ، إنْ نحنُ إلا بشرٌ مثلكم نأكل ممَّا تأكلون منه ، ونشرب ممَّا تشربون ، نأكل الطعام ، ونمشي في الأسواق ، هكذا كلُّ الأنبياء : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ

لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان:٢٠) ، لأنهم قالوا : ﴿ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان:٧) .

## تمييز الرسل بالوحي :

﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾

نحن بشرٌ مثلكم ، ميَّزنا الله بشيء ، كما قال نبيُّنا ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (الكهف:١١٠) ، أنا واحدٌ مثلكم تمامًا ، مُكوَّن من جسم ورُوح وعقل ، ومن طين صَلْصال ، ونَفْخة من رُوح الله ، أنا مثلكم آكلُ وأشرب ، وأفرحُ وأحزن ، وأضحكُ وأبكي ، وأصحُّ وأمرض ، وأحيا وسأموت .

﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ، يمنُّ عليهم بأنْ ميَّزهم بالوحي ، واخْتَارَهُم من بين خلقه لِيُنْزِلَ عليهم وحيه ، هذا هو الذي مَيَّزهم به عن غيرهم من البشر ، اصْطَفَاهُم الله تعالى لذلك .

## النبوَّة اصْطفاء من الله عزَّ وجلَّ :

فالنبوَّة ليست مكتسبةً ، أي : ليس معناها أنَّ الواحد ـ مثلاً ـ يجتهد في الطاعة ، ويتعبَّد لله ، ويقرأ الكتب ، ويتعلَّم العلم ، لتنزل عليه رسالة !! لا . . النبوَّة هذه اصْطفاء ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (الحج:٧٥) . وكما قال الناظم :

ولـــم تكـــن نبـــوَّةٌ مكتســـبة ولـو رقـى فـي الخيـر أعلـى عَقَبـة[1]

النبوَّة لا تُكتسب ، وإنما هي هبةٌ مـن الله واصْطفاءٌ ، وقـد خُتمت بمحمَّد ﷺ : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ

---

(١) البيت من متن جوهرة التوحيد ، للعلامة الشيخ إبراهيم اللقاني رحمه الله تعالى .

﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٠) ، ولقد قال ﷺ : « أنا العاقبُ الذي ليس بعدي نبيٌّ »[1] خُتمت النبوَّات بمحمد ﷺ .

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ، يقول الرسل الكرام لأقوامهم : مَنَّ الله علينا بالوحي ، وأرسلنا إليكم لندعوكم إلى ساحة الله ، ونأخذ بأيديكم إلى طريق الله ، نأخذ بأيديكم إلى الجنَّة ، إلى مَثُوبة الله وإلى رضوانه .

## عدم ردِّ الرسل على جميع دعوى أقوامهم :

﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾

هم قالوا لهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ ، فردُّوا على قضيَّة البشريَّة هذه بأنهم بشرٌ ، لا ننكر هذا ، ولكنَّا بشرٌ آتانا الله الوحي ، لم يردُّوا على قولهم : ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ ، لأنَّها لا تستحقُّ الردَّ ؛ فماذا يعبد آباؤكم إلا الباطل ؟!

آباؤكم عَبَدوا الأصنام والأحجار ، عبدوا ما لا يضرُّ ولا ينفع ، ولا يملك نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا ، ولكن ردُّوا على قولهم : ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ قالوا :

## المعجزات من عند الله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ .

نحن لا نستطيع أن نأتي بمعجزة ، لا نستطيع أن نُحيي الموتى ، لا نستطيع أن نُبرئ الأكْمَهَ والأبرص ، إلا بإذن الله ، وأمره لنا ومشيئته .

---

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٥٤) ، والترمذي في أسماء النبي (٢٨٤٠) ، وابن حبان في التاريخ (٦٣١٣) ، عن جبير بن مطعم .

يقول الله تعالى لسيِّدنا عيسى المسيح عليه السلام : ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران:٤٩) ، ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ (المائدة:١١٠) ، المسيح لا يملك شيئًا ، كلُّ هذا بإذن الله عزَّ وجلَّ .

## الاعتصام بالله والتوكل عليه :

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

أمام هذا التَّحدِّي وأمام هذا التَّكذيب ليس هناك إلا ركنٌ ركين ، وحِصْنٌ حصين يَلُوذُ به صاحب الدعوة في مواجهة هذه التحديات ، هذا الركنُ الركين هو الاعتصام بالله عزَّ وجلَّ ، أن يتوكَّل الإنسان على الله ، أن يجعل الله له وكيلاً في أموره كلِّها أمام المواجهات ، أمام الجَبَروت من المُكذِّبين ، من الفراعنة ، والنَّمارذة ، والقوارين ، والهوامين ، وأصحاب القوَّة ، وأصحاب السلطة ، ليس للإنسان ملجأ إلا الله عزَّ وجلَّ يتوكَّل عليه ، وهكذا قال المؤمنون : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ . كما جاء في القرآن : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة:٢٣) .

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾

وهكذا قال الرسل جميعًا : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾، ما عذرنا في ألا نتوكَّل على الله؟! ما الذي يمنعنا أن نتوكَّل على الله؟! ما لنا ألا نتوكَّل على الله وهو الذي هدانا سُبلنا ، وأنار لنا الطريق[1].

---

(١) والمراد بالسُبل : سبل النجاة من كيد الكفار ، ومنها : سبيل إعداد المستطاع من القوة ، لمواجهة قوات الأعداء ، ومنها : التحول عن الدعوة العلنية إلى السرية ، إلى غير ذلك من سبل ، تجعل لهم مخارج بالفرج والنصر .

## توكُّل الأنبياء على الله عزَّ وجل :

كلُّ الأنبياء توكَّلوا على الله ، سيدنا نوح قال لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ (يونس:٧١) .

سيدنا هود حينما قالوا له : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ ، يظهر أنَّ بعض آلهتنا مسَّك بسوء ، فأصبتَ بالهوس أو بالخلل العقلي ، وأصبحتَ تدعو إلى نبذ الأصنام وإلى هذا الدين : ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾ أنتم وأصنامكم وآلهتكم ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (هود:٥٥،٥٦) .

سيِّدنا إبراهيم والمؤمنون معه يقولون : ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (الممتحنة:٤) .

سيِّدنا شعيب يقول : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ (الأعراف:٨٩) .

سيِّدنا موسى يقول لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (يونس:٨٤-٨٦) .

وهكذا رأينا سيدنا موسى حينما أتبعه فرعون بجنوده ، وقد وجد البحر أمامه وفرعون وجنوده من خلفه ، وقال له أصحابه : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ ، أدركنا فرعون وجيشه ، ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء:٦٢) .

البحر من أمامه والعدُّو من خلفه ، ويقول : ﴿ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾، وقد هداه ربه : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ

﴿ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴾ (الشعراء:٦٣-٦٦) . وهكذا رأينا الأنبياء جميعًا .

وهكذا عندما كان محمد عليه الصلاة والسلام ، في الغار وقد وصل قومه في رحلة البحث عنه إلى الغار الذي يقيم فيه هو وصاحبه ، وقال مَنْ قال منهم : محمد إما هبط إلى الأرض من هنا ، وإما صَعَد إلى السماء من هنا . لم يغادر هذا المكان .

وقال أبو بكر وقد أخذه الخوف على رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، لو نَظَر أحدهم تحت قدميه لرآنا .

فقال : « يا أبا بكر ، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما ، ﴿ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة: ٤٠) »(١).

﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ (الشعراء:٦٢) ، قالها موسى .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة: ٤٠) ، قالها محمد ﷺ .

هكذا هم الأنبياء يتحدَّثون من مشكاة واحدة ، ولذلك كلهم قالوا : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ ، هدى كُلاًّ منا سبيله وطريقه ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (العنكبوت:٦٩) ، الله هَدَاهُم الطريق المستقيم ، ويَسَّر لهم أمورهم .

## الصبر والتوكل :

﴿ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾

قَرَن الأنبياء عليهم السلام بين الصبر والتوكل : ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (النحل:٤٢) .

---

(١) متفق عليه ، رواه البخاري في التفسير(٤٦٦٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة(٦٣١٩) ، كما رواه أحمد (١٢) ، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٩٦) ، عن أنس بن مالك .

كذا كان شأنُ الأنبياء جميعا وشأنُ محمد ﷺ ، سيِّد الصَّابرين وسيِّد المتوكلين ، القرآن أمره بالصبر في سبع عشرة آية ، ومنها : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ (النحل:١٢٧) ، ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ (المعارج:٥) ، ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ (المدثر:٧)، ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (الروم:٦٠) .

وأمره بالتوكل : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ (الفرقان:٥٨) . ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (الشعراء:٢١٧،٢١٨) . ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ (النمل:٧٩) ، أُمر بالصبر والتوكل .

## مواجهة الإيذاء بالصبر :

ولذلك أعلن الأنبياء توكُّلهم على الله ، وأعلنوا الصبر على الأذى ، ما دام أقوامهم قد وقفوا منهم هذا الموقف ، معناه أنهم صَمَّموا على إيذائهم ، فلا بد أن يُصَمِّموا على الصبر ، أن يُواجِهُوا الإيذاءَ بالصبر : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (آل عمران:١٨٦) .

هذه سُنَّة الله في أصحاب الدعوات جميعًا ، لا بد أن يُصيبهم الأذى ، وينالهم العذاب ، وتنزل بساحتهم المحن من كلِّ جانب ، ولابد لهم أن يصبروا ، ليس هناك إلا الصبر ، ولذلك قال الأنبياء : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾ ، اللام للقسم ، والنون للتوكيد ، ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ ﴾ ، كما قال الله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ ، يعني لا بد من البلاء ، قسم وتوكيد : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥٥) .

كلُّ هذا القَسَم ، فلا بد من البلاء ، ولابد من صبر ، فإذا كان البلاء واقعًا لا محالة ، فلا بد أن نواجهه بصبر مُؤكَّد .

## صَبْر الأنبياء على البلاء :

وهكذا صبر الأنبياء جميعًا : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ، ولذلك كان الأنبياء جميعًا من أهل الصبر ، النبيُّ عليه الصلاة والسلام يقول : « أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل »[1] . وأمثل الناس ، وأفضل الناس هم أنبياء الله ورسله ، ولذلك كانوا أكثر الناس تعرضًا للبلاء ، وعلى قدر منزلتهم عند الله ابتلوا .

انظر كيف ابْتُلي إبراهيم عليه السلام ، ابْتُلي بالنار ، وُضِع في النار ليُحرق ، وابتُلي بذبح ولده ، وابتُلي بالهجرة من وطنه . .

وانظر كيف وجدنا يوسف عليه السلام يُبتلى من محنة إلى محنة ، ويخرج من محنة ليدخل في محنة أخرى : محنة إخوته ، ومحنة امرأة العزيز ، ومحنة السجن ، كلُّ هذه محن بعد محن .

ووجدنا موسى عليه السلام يُبتلى بالمحن من أوَّل ولادته : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ (القصص:٧)، يقول الوحي لأمِّ موسى : إذا خفتِ عليه ارميه في البحر : ﴿ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾ .

هكذا الأنبياء لم يولدوا وفي فم أحدهم ملعقة من ذهب ، كما يقال .

الأنبياء كلُّهم ابتُلوا وأُوذوا حينما واجهوا قومهم ، نالهم من الأذى الشيء الكثير .

النبيُّ عليه الصلاة والسلام ، آذاه بعض الناس بكلمات شديدة فقال : « رحم الله أخي موسى ، لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر »[2] . فقد أُوذي من قومه أكثر ممَّا أوذي من غيرهم ، حتى قال : ﴿ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا

---

(١) سبق تخريجه صـ (١١١) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الخمس (٣١٥٠) ، ومسلم في الزكاة(١٠٤٦) ، عن عبد الله ابن مسعود .

﴿ وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (المائدة:٢٥) ، هؤلاء الناس أصحابي لا أملكهم ، انظر أي إيذاء أكثر من هذا !

كلُّ الأنبياء أُوذوا ، ولكنَّ الأنبياء جميعًا صبروا وصَابَروا ورابَطوا حتى نصرهم الله على أعدائهم ، كلُّ الأنبياء نُصِرُوا ، حتى ولو لم تنجح دعوتهم وتنتشر في الناس انتشارًا كبيرًا .

كان أهم شيء أنَّ الله عزَّ وجلَّ أهلك أعداءهم ونصرهم ونصر المؤمنين معهم ، هكذا سُنَّة الله عز وجلَّ .

## تدخُّل القدر الإلهي في مواجهة المُتَسلِّطين :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾

ماذا يفعل الضعفاء الذين لا يملِكون القوة في مواجهة المتسلِّطين؟!

ماذا يفعل الإنسان العاجز ، الذي ليس معه سلاحٌ مادي أمام الإنسان المتجبِّر ، الذي لا يخشى خالقًا ولا يرحم مخلوقًا؟!

هنا يتدخَّل القَدَر الإلهيّ ، هنا يأتي قولُ الله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ .

لا يظنُّ هؤلاء الطغاة والظلمة والمستكبرون في الأرض بغير الحق أنَّ الأرض خَلَتْ لهم ، وأنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يشاؤون .

هناك مملكةٌ لها مَلِكٌ يحكمها . هذا الملك لا يمكن أن يَدَعَ الظلمة يستبدُّون بالخلق ويفعلون ما يشاؤون ، إنه يُمهلهم ولا يهملهم ، كما قال عزَّ وجل : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾

(الأعراف:١٨٢،١٨٣) .

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام:٤٤،٤٥) ، وقوله : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ، لها دلالة عميقة في هذا المقام : الله رب العالمين ، المدبِّر لهذا الكون ، لا يمكن أن يدع المتألِّهين في الأرض يعملون ما أرادوا ، قد يُمهلهم فترةً من الزمن ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مُقْتدر . كما قال ﷺ : « إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِته » ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾ (هود:١٠٢) [1].

ولذلك نزل الوحيُ الإلهيُّ أمام هذا الوعيد ، وهذا التَّهديد من هؤلاء القوم : ﴿ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ ، لم يدعُهم ربُّهم ، ولا يمكن أن يَدَعَهم .

في الساعة الحاسمة يأتي لطف الله ، ويأتي قدر الله ، كما قال سيدنا موسى حينما وجد البحر أمامه ، والجند وراءه ، وقال أصحاب موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴾ (الشعراء:٦١) ، سيدركنا فرعون ، ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (الشعراء:٦٣) . عندما تشتدُّ الأزمة تنفرج ، عندما يَحْلَوْلك الليل وتشتدُّ ظلماته ينبثق الفجر .

## هلاك الظالمين :

﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

الظالمون كانوا يُؤكِّدون : ﴿ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ بهذا التأكيد والتشديد . ولكن هناك تشديدٌ وتوكيدٌ ممَّن يملك أن يقول للشيء كن فيكون .

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٦) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٣) ، عن أبي موسي الأشعري .

﴿ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، الظلم مُؤْذِنٌ بهلاك أصحابه ، طبيعة الظلم أنَّه يُدمِّر ، وطبيعة العدل أنَّه يُعمِّر .

حتى قالوا : إنَّ الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة[1]. لو كان أصحابها مسلمين يقولون : لا إله إلا الله ، ولكنهم ظَلَمَة طُغَاة جبَّارون في الأرض ، ينتهكون حُرُمات الناس ، ويستحلُّون دماء الناس ، ويستبيحون أموالهم ، فالله يهلك دولتهم الظالمة ، إذ الظلم لا بقاء له ، قد يستمرُّ زمنًا ، ولكن لا بد من نهاية له ، نهايته الهلاك والدمار ، كما قال تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾ (النمل:٥٢) ، ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ (الكهف:٥٩) ، لا بد من زوال دولة الظلم . إنما متى ؟ فئةٌ من الناس تصبر حتى يأتي الموعد المُحدَّد ، وفئةٌ تستبعد وتيأس .

المؤمن لا ييأس أبدًا ، ويعلم أنَّ ظلم الظالم لا يدوم أبدًا ، لأنَّ عدل الله يأبى ذلك .

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، وقد أهلك الله الدول والقبائل والشعوب التي ظلمت .

هؤلاء ظلموا أنفسهم ، وظلموا رسلهم ، وظلموا المؤمنين معهم ، وظلموا الحقيقة حينما عبدوا ما لا يجوز عبادته ، حينما أشركوا بالله ما لم ينزِّل به سلطانًا ، كما قال لقمان لابنه : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان:١٣) ، هؤلاء ظلموا من أكثر من وجه .

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٤٦/٢٨) .

## سُنَن الله الثابتة :

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾

هذا قانون من قوانين الله عزَّ وجلَّ ، وسُنَّةٌ من سُنن الله الثابتة التي لا تجدُ لها تبديلاً ، ولا تجد لها تحويلاً ، ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر:٤٣) .

هلاك الظالمين المستكبرين المعتدين على حدود الله وحُرُمات النَّاس هذه حقيقة ، وإسكان المؤمنين الأرض من بعدهم ، ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ ، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ (الأعراف:١٣٧)

## سُنَّة التداول :

هذا صنع الله عزَّ وجلَّ : تبديلُ الأدوار ، والدهر يومان : يومٌ لك ويوم عليك .

سُنّة يسمِّيها القرآن سنَّة التداول ، أو مداولة الأيام بين الناس ، (دوام الحال من المُحَال) ، فبينما قومٌ مرتفعون إذا بهم ينخفضون ، وبينما قوم أقوياء إذا بهم يضعفون ، والعكس بالعكس .

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران:١٤٠) ، هذه سُنَّة التداول ، تداول الأيام بين الناس ، الله سبحانه غيَّر الأوضاع ، الذين كانوا يُهَدِّدون بالإخراج من الديار ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ ﴾ ، مع أنَّ الأرض مشتركةٌ بين الجميع ، وإنما ادَّعوا أنَّ الأرض أرضُهم هم ، وأنَّ هؤلاء لا حقَّ لهم فيها ، كأنَّهم دُخَلاء عليها ، مع أنها أرضهم مثلهم تمامًا .

غيَّر الله سبحانه الأدوار ، فأصبح هؤلاء هَلكى ، ولم يعودوا إلى هذه الأرض ، وأصبح المُهدَّدون هم الوارثين ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ

وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ (القصص:٤-٦)

الله سبحانه يقول : ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ ، سُكنى الأرض من بعد أولئك الظلمة ، المتجبِّرين المهدِّدين للمؤمنين المُسْتضعفين .

## الوارثون للأرض :

﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾

مَنِ الذينَ يرثونَ الأرض؟ هم الصَّالحون ، كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾(الأنبياء:١٠٥)، فعبَّر الله سبحانه عن هؤلاء العباد الصالحين : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ ، لأنه لا يخاف مقام الله إلا الصَّالحون .

ولا يخاف مقام الله إلا المُتَّقون : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات:٤٠،٤١) ، ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن:٤٦)

وراثة الأرض ، وسُكنى الأرض ، والتَّمكُّن في الأرض بعد هلاك الظالمين ، وبعد أن تزولَ دولتهم ، ويزولَ سلطانُهم هذا ، لمَن خاف مقام الله وخاف وعيده ، أي : هو للمؤمنين الصَّالحين الذين يستحقُّون أن يرثوا الأرض ؛ لأنهم لا يريدون أن يعيثوا فيها فسادًا : ﴿ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ (القصص:٨٣) ، لا يريدون أن يعلوا على الناس ويستكبروا عليهم .

هذا هو شأن المؤمنين الصَّالحين حينما يأتي لهم الملك والسلطان ، ليس لهم هدف شخصيٌّ في أنفسهم . بعضُ الناس إذا أتاه الملك ، أو مكَّن له في الأرض يريد أن يخفضَ ويرفع ، ويعزَّ ويذل ، وأن يستمتع بالشهوات ويكرع اللذات ، ما هكذا يريد المؤمنون .

المؤمنون قال الله فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (الحج:٤١) ، ولذلك قال : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ .

## لماذا ذكر الخوف هنا ولم يذكر الرجاء ؟

والقرآن عادةً يُزاوج بين الخوف والرجاء : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ (الزمر:٩) ، ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ (الإسراء:٥٧) ، لأنَّ سياق الآيات في حالة الطغيان والتَّمادي في معصية الله ، فالخوفُ هو العلاج ، والرجاء هنا ليس مطلوبًا . كما يذكر الله سبحانه أحيانًا النُّذر : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ (هود:١٢) ، ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ (القمر:٤،٥) ، لا ينفع التبشير هنا ، المطلوب هنا الإنذار والتخويف .

## أهمية الخوف :

﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ ، الخوف هو الذي يدفع الإنسان إلى عمل الخيرات وترك الشرور ، وإلى سلوك سبيل المؤمنين والابتعاد عن سبيل المُكذِّبين ، سبيل الطغاة والشياطين ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ (البينة:٨) ، ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (الرعد:٢١) .

الوعد والوعيد :

﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾

أي : خاف وعيدي . يخافُ وعيدَ الله ، كما يرجُو وَعْدَ الله ، الله يَعِدُ المؤمنين بالمثُوبة في الدنيا والآخرة ، وبالجنَّات والرِّضْوان يوم يَلْقَونَهُ ، ويُوعد المسيئين والمُكذِّبين بعقوبته في الدنيا والآخرة ، وبناره المُوقَدَة ، وبما أعدَّ لهم من عذابٍ شديد . هذا هو الوعيد .

الوعد غالبًا ما يكون في الأمور المحبوبة ، والوعيدُ في الأمور المخوفة . وقد يذكر الوعد في هذا وهذا : ﴿ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (الحج:٧٢) .

## مَن الذين طلبوا النَّصر والفَصْل بينهم وبين خصومهم ؟

﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

ما معنى الاستفتاح؟ الاستفتاح : طلب الفتح أي : النَّصر ، أو طلب الفِتاح ، يعني : الفصل والحكم بيننا وبين أعدائنا .

مَن الذي استفتح؟ هل الرسل الذين استفتحوا ، أي : طلبوا الفتح والنصر من الله على أقوامهم؟ احتمال . أم هم المُكذِّبون الذين قالوا لرسلهم : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ ﴾ ، هم الذين طلبوا الفتح والنصر؟ احتمال أيضًا .

هؤلاء الكافرون كثيرًا ما تسول لهم أنفسُهم أنَّهم على الحقِّ من طول ما أمهلهم الله عزَّ وجلَّ ، سَخِروا من الرسل ، واستهزؤوا بدعوتهم ، وآذوهم وآذوا أصحابَهم المؤمنين ، والله سبحانه وتعالى لا يُعاجلهم بالعقوبة ، يَجْترئون على الله ويَحْلُم الله عليهم .

## إمهالُ الله للظالمين :

وهذا من عجائبِ عَظَمةِ الله عزَّ وجلَّ ، فهذا أحيانًا يُطْغيهم ، ويُخيِّل إليهم أنهم على حقٍّ .

ولذلك قال قوم نوح : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (هود:٣٢)، وقال قوم شعيب : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ (الشعراء:١٨٧) ، وقال قوم محمد ﷺ : ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأنفال:٣٢)

وقال أبو جهل يوم بدر : اللهَّم أقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا نعرفه ، فأحِنْه الغداة[١]. أبو جهل يظنُّ أنه أوصل للرحم ، وأقرب إلى الحقِّ من محمد ﷺ[٢].

## تزيين الأعمال السيِّئة للكافرين :

هؤلاء الناس يُخيَّل إليهم أحيانًا ، ويُزيَّن لهم سوء عملهم فيرونه حَسَنًا : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ (فاطر:٨) ، ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف:١٠٤) .

ترى الرجل على الباطل ويُخيَّل إليه أنه على الحقِّ ، هذا ما نراه في حياتنا . بوش يحارب المسلمين ويعتقد أنه مبعوثُ العناية الإلهية . ويقول : ربِّي أمرني أن أحارب في أفغانستان ، ربِّي أمرني أن أحارب في العراق . كأنه نبيٌّ يُوحى إليه .

---

(١) رواه أحمد (٢٣٦٦١) وقال مخرجوه : صحيح ، والنسائي في الكبري في التفسير (١١١٣٧) ، والحاكم في التفسير (٣٢٨/٢) ، وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبي ، عن عبد الله بن ثعلبة العذري .

(٢) وقد أنزل الله تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال:١٩) .

## نتيجة الاستفتاح للكافرين :

هؤلاء الكافرون طلبوا الفتح على الرُّسل . وجاء الفتح ـ ليس على ما يظنُّون ـ جاء الفتح من الله بنصر الحقِّ وخُذْلان الباطل ، بإزالة دولة الباطل ، وإقامة دولة الحقِّ والإيمان .

﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ، كان من نتائج هذا الاستفتاح : خيبةُ كل جبَّار عنيد ، خيبة هؤلاء الكفار .

والعلماء يقولون : هذا إظهار في مقام الإضمار . يريد أن يُبيِّن لنا صفتهم ، هؤلاء الذين خابوا هم الجبابرة المعاندون للحق .

## الخيبة والخائبون :

الخيبة : هي فَوْت المطلوب ، أن لا يُدرك الإنسانُ ما يريده ، أو يتحقَّق له عكس ما يريد .

يريد النصر فتأتي الهزيمة ، يريد النجاح فيأتي الفشل ، يريد الربح فتأتي الخسارة . وهذه هي الخيبة كما يقولون : (أطال الغَيْبة وأتى بالخَيْبة)[1]. خيبة الله على هؤلاء الكفرة .

القرآن ذكر الخيبة لعدّة أناس . قال : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ (طه:٦١)، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ (طه:١١١) ، ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (إبراهيم:١٥) ، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس:١٠) .

---

(١) العقد الفريد (٣/٦٥) .

## المتجبِّرون في الأرض :

من هو الجبَّار؟ المُتَّصف بالجَبروت ، وهذه من صفات الله وأسمائه : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ (الحشر:٢٣) ، الجبروت والتكبُّر صفةُ مدْح بالنسبة إلى الله عزَّ وجلَّ ، ولكنها صفة ذمٍّ بالنسبة للخلق ، الإنسان يُذَمُّ إذا كان جبَّارًا .

الله جبَّار يظهر القوَّة والتَّعالي على الظلمة والطغاة ، ويأخذهم أخذًا أليمًا شديدًا ، هذا جَبَروتٌ في محلِّه ، وهو المتكبِّر على هؤلاء المتعالين . وأما الإنسان فلا ينبغي له أن يكون جبارًا ولا متكبِّرًا .

## الأنبياء ليسوا جبابرة :

ولذلك قال تعالى لرسوله : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق:٤٥) ، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية:٢١،٢٢) ، وقال عن سيِّدنا يحيى : ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ (مريم:١٤) ، وقال المسيح عليه السلام حينما أنطقه الله بالمهد صبيًّا : ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ (مريم:٣٢) ،

سيِّدنا موسى حينما استغاثه رجلٌ من شيعته على رجل من عدِّوه : ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ (القصص:١٥) ، ولمَّا استغاثه الرجل مرَّة أخرى : ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ (القصص:١٩) .

## الجَبَروت في الأرض ليس من شأن المصلحين :

الجبابرة طُغاة مُسلَّطون على عباد الله . ولذلك حَكَمَ الله تعالى عليهم بالخيبة ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ .

الراغب الأصبهاني يقول : الجبَّار في صفة الإنسان ، يقال لمن يجبر نقيصته ، بادعاء منزلة من التعالي ، لا يستحقها[1].

الإنسان فيه عَيْبٌ ، يريد أن يستر العيب ، يظهر نفسه عظيمًا قويًّا مقتدرًا ، ولذلك تجد الجبابرة جميعًا عندهم نقائص خفيَّة يعرفها المخالطون لهم .

﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ، الله سبحانه ذمَّ قوم هو ، فقال : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (هود:٥٩) .

## الوقوف في وجه الجبابرة المعاندين :

الله يذُم الشعوب التي تَتَّبع الجَبَابرة وتسير في ركابها ، وتحْرِقُ البخور بين أيديها ، كما شاعت بعض الأمثلة الشعبية على ألسنة الناس : (الذي يتزَّوج أمي أقول له : يا عمي . إذا كان لك عند الكلب حاجة فقل له : يا سيدي) . هذا هو الذي يُضيِّع الأُمم . يجب أن تقف في وَجْهِ الجبابرة ، وفي الحديث الشريف : « إذا رأيتَ أمتي تهاب الظالم أن تقول له : أنت ظالم ، فقد تُودِّع منهم »[2].

---

(١) مفردات القرآن (١٦٧/١) ، دار القلم ، دمشق .

(٢) رواه أحمد (٦٧٨٤) وقال مخرجوه : إسناده ضعيف لانقطاعه ، والحاكم في الأحكام (٩٦/٤) وصحح إسناده ، ووافقه الذهبي ، والبزار (٢٣٧٥) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٢/٧) : رواه أحمد والبزار بإسنادين ، ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح ، وكذلك رجال أحمد ، إلا أنه وقع فيه في الأصل غلط ، فلهذا لم أذكره .

## عذاب الجبَّارين المعاندين :

﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾

ولكنَّ الشيء الذي يشربه أشدُّ من العطش . يُعاقَبُ بما هو أشد :

﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾

لا يقدر على بلعه من شدَّة حرارته ومرارته .

﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾

يأتيه الموت من يمين وشمال ، يأتيه من أمام ومن خلف ، يأتيه من فوق ومن تحت ، تأتيه أسباب الموت .

﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ ، لو مات لاستراح ، ولكنَّ الله سبحانه لا يريد أن يُريحَه ، هذا الذي آذى رسله في الدنيا ، وآذى المؤمنين معهم ، هؤلاء الذين ارتكبوا الموبقات ، هؤلاء الذين اقْترفوا السيئات ، هؤلاء الذين فعلوا الأفاعيل ، لا بد أن يجازيهم الله بما فعلوا : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف:٤٩).

## الآخرة لا موتَ فيها :

﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ ، لأنَّ الآخرة لا موت فيها : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الدخان:٥٦) .

صَوَّر الرسول ﷺ الموت بمعنى من المعاني :« يُؤتى بالموت كهيئة كبش أملح ، فينادي منادٍ : يا أهل الجنَّة . فَيَشْرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت . وكلُّهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار . فَيَشْرئبون وينظرون ، فيقول : وهل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هـذا الموت . وكلهم قد رآه ، فيُذبح ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت . ويا أهل النار خلود فلا

موت»[1]. كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ (الأعلى:١١-١٣) ، لا هو ميت فيستريح ، ولا يحيا حياة تستحقُّ أن تُعاش .

## أوصاف العذاب في الآخرة :

﴿ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾

ينتظره فوق ذلك عذابٌ غليظ . الله سبحانه وصف عذابَ الآخرة بأوصاف كما قدمنا ، فهو أليم ، وشديد ، ومهين ، وغليظ ، وكلُّها أوصافٌ لهذا العذاب بجهةٍ من الجهات ، نسأل الله أن يَقِينا عذابه ، وأن يجعلنا من أهل النعيم .

## مَثَلُ أعمال الكفار :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾

ثم قال تعالى ضاربًا المَثَل بأعمال الكفار ، الأعمال التي يمكن أن توضَعَ في قائمة الخير .

قد يُطْعِم الكافر جائعًا ، قد يصل رحمًا ، قد يغيثُ ملهوفًا ، ويفدي أسيرًا ، قد يفعل خيرًا للناس ، قد يبذل بعض المال للناس .

ما نتيجة هذه الأعمال التي لم تؤسَّس على أساس مكين؟ بنيانٌ ولكن بُنِيَ على الرمال !!

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في التفسير (٤٧٣٠) ، ومسلم في صفة الجنة (٢٨٤٩) ، كما رواه أحمد (١١٠٦٦) ، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٣١٦) ، عن أبي سعيد الخدري .

يقول الله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾ .

## القرآن يضرب الأمثال لتوضيح الحقائق :

المعقولُ يُظهره الله سبحانه في صورة المحسوس حتى يكون واضحًا بين الناس : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (البقرة:٢٦١) ، ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْ ﴾ (البقرة:٢٦٤) ، ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (إبراهيم:٢٤) ، يضرب الله الأمثال ليوضِّح لنا الحقائق ، حتى تكون جليَّة أمام الأعين ، واضحة أمام العقول .

فهنا يضرب لنا مثلاً بأعمال الكفار ، التي لم تُبْنَ على أساس إيمانيٍّ بالله ، ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ ﴾ ، كفروا بالله وعملوا أعمالاً طيِّبة .

## ما مصير هذه الأعمال يوم القيامة ؟

يقول تعالى : ﴿ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ ﴾ ، أصل الرماد : ما يكون من أثر احتراق الشيء ، والمقصود هنا : الرمل والتراب .

﴿ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ ﴾ ، يوم من الأيام العاصفة ، التي تقتلع بها الأشجار ، وتقع أعمدة الكهرباء . في الأمس القريب حدث إعصار في لندن أوقع هلعًا هائلاً .

﴿ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ ﴾ ، بعثر هذا الرماد وذرَّاه في كلِّ ناحية ، فجعلته هباءً منثورًا .

﴿ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖ ﴾ ، لا يستطيع الكفار أن يحصلوا منه على أيِّ شيء من الثواب ، كما لا يقدر صاحب الرماد المتطاير في الريح على

إمساك شيء منه ، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ العمل على غير أساس ﴿ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ عن الصواب .

لماذا لا يكافئ الله الكافرين على أعمالهم الخيِّرة؟ لأنها فقدت شروط القبول .

## شروط قبول العمل :

الأعمال لا تقبل عند الله إلا بشروط ، حتى العمل من المسلم ، المسلم لا يقبل عمله إلا بشرطين : الإخلاص لله ، وأن يكون عمله على السُّنَّة على المنهج الشرعي .

لما سُئل أبو علي الفُضَيل بن عياض عن أحسن العمل ؟

قال : أحسن العمل : أخلصه وأصوبه .

قيل له : ما أخلصه وما أصوبه ؟

فقال : إنَّ الله لا يقبل العمل ما لم يكن خالصًا صوابًا ، فإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، وإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، والخالص إذا كان لله ، والصواب إذا كان على السنة[1]. على المنهج الشرعيِّ ، غير مبتدع ، لأنَّ « كلَّ بدعة ضلالة »[2]، و« مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه ، فهو ردٌّ »[3]، هذا من المسلم .

ولذلك يقول الرسول ﷺ : « إنَّما الأعمال بالنيَّات ، وإنَّما لكلِّ امرئ ما نوى ، فَمَنْ كانت هجرتُه إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٩٥/٨) .

(٢) رواه أحمد في المسند (١٧١٤٤) وقال مخرّجوه : حديث صحيح ورجاله ثقات ، ورواه أبو داود في السنة (٤٦٠٧) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٦) وقال : حديث صحيح ، وابن ماجه في المقدمة (٤٣) وصححه الألباني في صحيح أبي داود ، عن العرباض بن سارية .

(٣) متفق عليه : رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧) ، ومسلم في الأقضية (١٧١٨) ، كما رواه أحمد في المسند (٢٦٠٣٣) وأبو داود في السنة (٤٦٠٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٤) ، عن عائشة .

إلى دنيا يُصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1]. اثنان هاجرا معًا ، ولكن تُقبل هجرة أحدهما ، ولا تُقبل هجرة الآخر ، هذا هجرته في سبيل الله ، وهذا هجرتُه لأنه كان يحبُّ واحدة هاجرت ، وقال : لماذا أبقى بعدها ، يجب أن أهاجر وراءها ، هذا هجرته في سبيل الله ، وهذا هجرته في سبيل المرأة .

## مصير الأعمال التي افتقدت الإيمان :

وكذلك غير المسلم : لا يُقبل منه عملٌ ما لم يؤسَّس على الإيمان بالله ، أما إذا لم يؤمن بالله كيف ينتظر أن يدخل جنَّة الله؟

الله سبحانه يقول : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ (الفرقان:٢٣) ، وفي سورة النور صوَّر الله لنا عمل هؤلاء الكفار مصيره ، فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور:٣٩، ٤٠) ، هذه أعمال افتقدت نور الإيمان .

## شرط قبول العمل : أن يكون مؤسَّسًا على الإيمان :

وشرط قبول العمل عند الله : أن يكون مؤسَّسًا على الإيمان : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ۖ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ (الأنبياء:٩٤) ، ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الإيمان (٥٤) ، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧) ، كما رواه أحمد في المسند (١٦٨) ، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١) ، والترمذي في الجهاد (١٦٤٧) ، والنسائي في الطهارة (٧٥) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧) ، عن عمر .

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴾ (النساء:١٢٤) ، ﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴾ (الإسراء:١٩) .

يجب أن يتحقَّق شرط الإيمان : الإيمانُ بالله خالق هذا الكون ، أما إذا لم يكن مُعترفًا به فكيف يكافئه ؟ كيف تطلب من مَلِكٍ أن يكافئك وأنت غير معترف بملكه ، تقول : إنه لا يستحقُّ الملك لا يمكن أن يُكافئك . فالذي يكفر بالله لا يُنتظر منه أن يكافئه .

## نتيجة أعمال الخير من الكافر :

هل معنى هذا أنه يضيع عمله الخيِّر تمامًا؟ لا يكافأ عليه إطلاقا؟!

أما في الآخرة فلا أثر لعمله هذا في دخول الجنة .

السيِّدة عائشة سألت رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ابن جُدْعان كان في الجاهلية يَصِلُ الرَّحِم ، ويُطْعم المسكين ، فهل ذاك نافعه؟

قال : « لا ينفعه ، إنه لم يقل يومًا : ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين »[1] . لم يذكر ربَّه في يوم من الأيام ، عملُهُ غير مؤسَّس على الإيمان . لم يقل : ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين .

يقول بعض الناس : الذي اخترع الكهرباء يدخل النار!! الذي اخترع الإنترنت يدخل النار؟

والجواب : هل عملها لله عزَّ وجلَّ أم لأمر دنيويٍّ؟!

الإنترنت أصله ـ كما قرأتُ ـ عند وزارة الدفاع الأمريكية ، فاكتشفت هذه الوسيلة من الاتِّصالات ، وكان خاصًّا بالجيش الأمريكي ، ووزارة الدفاع ، ثم بدأت تُعمِّمه على الناس شيئًا فشيئًا ، ولم تكن تريد خدمة البشريَّة .

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (٢١٤) ، وأحمد (٢٤٦٢١) .

لا بد لقبول العمل الصالح : أن يكون القصد هو وَجْهَ الله عزَّ وجلَّ . وليس معنى هذا أنه لا يكافأ على عمل الخير إطلاقًا .

## مكافأة الكفار على عمل الخير :

يُكافئ الله تعالى الكافر على عمل الخير في صورتين :

في الدنيا يُوسِّع له في الرزق ، ويُعطيه مَجْدًا وجاهًا وأولادًا ، ويُبارك له في صحَّته . وكلُّ هذه من المكافآت الدنيويَّة مقابل أعماله الخيِّرة .

وفي الآخرة لا يساويه بالظَّلَمة المُعذَّبين .

هناك كَفَرةٌ فقط ، وهناك كَفَرة وظَلَمة : ﴿ **ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ** ﴾ (النساء:١٦٨) ، هناك كافر فقط ، وهناك كافر ظالم ، ليس مُجرَّد كافر ، فَعَل البلايا والمصائب بالبشر ، وقتل العشرات أو المئات أو الألوف أو الملايين من الناس ، فعلوا بشعوبهم ما فعلوا ، هؤلاء لا يكونون مثل غيرهم من الكفار .

الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ** ﴾ (النحل:٨٨)، ويقول الله سبحانه عن مؤمن آل فرعون : ﴿ **فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ** ﴾ (غافر:٤٥،٤٦) ، فهناك عذابٌ شديد ، وهناك أشدُّ العذاب .

الكافر الذي فعل أفعالاً في ميزان الخير تنفع الناس يكافئه الله بأنه يُخفِّف عنه من العذاب يوم القيامة ، هذا من فضل الله تبارك وتعالى ، ويسير مع القانون الذي يقول : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** ﴾ (الزلزلة:٧،٨)، فهذا الخير الذي فعله الكافر رأى نتيجته في الدنيا ، ورأى نتيجته بوجهٍ ما في الآخرة .

* * *